

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث جنْدُبٌ بْنِ جَنَادَةَ وَمَعَاذَ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنهمَا - "اتق الله حيثما كنت"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكنا نتحدث عن سؤالات جبريل للنبي -صلى الله عليه وسلم- حيث سأله عن الإسلام، وعن الإيمان، وعن الإحسان، وبيننا ما يدخل تحت ذلك من المعاني، وأن هذا الحديث من الأحاديث الجامعة التي يرجع إليها الإسلام، أو يرجع إليها الدين من أوله إلى آخره، فكل حديث في الإسلام، أو في الإيمان، أو في الإحسان، أو في المراقبة، أو في الإخلاص لله -عز وجل- وكل آية تتصل بهذه المعاني فهي راجعة إلى هذا الحديث. حتى إن من أهل العلم من يقول: إن هذا الحديث يصلح أن يسمى أم السنة، كما تسمى سورة الفاتحة بأم القرآن؛ لأن جميع معاني القرآن ترجع إلى الفاتحة، وهذا الحديث جميع معاني الدين ترجع إليه.

يقول: ثم انطلق فلبثت ملياً، هذا عمر -رضي الله عنه- يقول: لبثت ملياً، وفي بعض الروايات يقول: فلبث يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- ملياً، أي: قليلاً، وذلك بناء على رواية البخاري أنه لما انطلق أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه أن يردوه فلم يدركوه، فقال: هذا جبريل أتاكם يعلمكم دينكم، بمعنى أنه أخبرهم مباشرة، لكن ذلك لا يفسر به نفس اللفظ، فالفظة ملياً تعني: لبث طويلاً، فيمكن أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عمر بعد ذلك، يعني: يمكن أن يكون عمر انطلق، ثم أخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك، ثم ذكر الحديث الآخر في هذا الباب العظيم، وهو باب المراقبة.

قال: عن أبي ذر جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل -رضي الله عنهمَا- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اتق الله حيثما كنت...)).^(١)

هذا الحديث رواه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- اثنان من الصحابة: أبو ذر، ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما.

وأبو ذر هو جنْدُب، ويقال: جنْدُب، وأيضاً بكسر الدال، الدال فيه مثلثة، ويقال: بُرَير، وبعضهم يقول: جنْدُب بن عبد الله، وبعضهم يقول جنْدُب بن السكن، والمشهور أنه جنْدُب بن جنادَةَ -رضي الله تعالى عنه-. وأبو ذر معلوم خبر إسلامه، وذلك أنه أسلم قدِيمًا في مكة، حينما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- مستخفياً، ولله في ذلك قصة أخرجها الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه.^(٢)

وهو رابع من أسلم، وقيل: هو خامس من أسلم، وهو أول من ألقى على النبي -صلى الله عليه وسلم- تحية الإسلام، ولما دخل عليه وهو مستخفٍ في مكة -عليه الصلاة والسلام- أسلم، ثم رجع إلى قومه، أمره النبي

^١ - أخرجه الترمذى، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في معاشرة الناس (٤/٣٥٥)، رقم: (١٩٨٧)، وأخرجه أحمد (٣٥/٢٨٤)، رقم: (٢١٣٥).

^٢ - أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي ذر -رضي الله عنه- (٤/١٩١٩)، رقم: (٢٤٧٣).

- صلى الله عليه وسلم - أَن يرجع إِلَى قَوْمَهُ وَذَلِكَ فِي الْبَادِيَةِ وَقَوْمَهُ هُمْ غَفَارٌ - حَتَّى يَسْمَعُ بِخُرُوجِ النَّبِيِّ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَحْقًا بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ مَدَةٍ مِّنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وكان أبو ذر -رضي الله عنه- يتميز بأوصاف شهد له النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعضها، من ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه ((ما أظلمت الخضراء، ولا أفلت العبراء أصدق لهجة من أبي ذر)).^(٣)

والمراد بصدق اللهجة: أن الإنسان الذي يوصف بذلك إذا تكلم أطمأنت القلوب إلى كلامه، وأصغت إليه ومالت إليه، وعلمت أنه ليس بحديث متكلف، ولا بتقليل على الأسماع، ولا بمعنى، يعني: يجذب القلوب، إذا تحدث معك في أي قضية مجرد ما تسمع صوته فإن القلب ينجذب إليه، أصدق الناس لهجة.

ولما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- يتراءى من بعيد في غزوة تبوك، لما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أبعد في المسير، فلما رأى أخبار أنه يمشي وحده، وأنه يموت وحده، وأنه يبعث وحده -رضي الله عنه-(؟).

وهذا الذي حصل، فأبو ذر -رضي الله تعالى عنه- انتقل إلى الشام، ثم بعد ذلك رجع من الشام إلى المدينة في زمان عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، ثم بعد ذلك كثُر عليه الناس، وصاروا يتربدون عليه، لِمَا وقع بينه وبين معاوية -رضي الله تعالى عنه- بالشام، والناس من عادتهم أنهم لربما ينجذبون إلى من يقع بينه وبين الأئمَّة أو الحاكم بعض الشيء.

فصار الناس يتزدرون عليه ويتهاقون عليه بكثرة، حتى إنه تأدى من ذلك -رضي الله عنه-، وقال: لأن الناس لم يروني قبل ذلك، فقال له عثمان -رضي الله عنه-: لو تتحيز، فذهب إلى ناحية عن المدينة يقال لها الربدة، وبقي فيها حتى مات -رضي الله تعالى عنه-، فمات وحيداً كما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام-، وسيقع مصداقي ما أخبر عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- من أنه سيعشر وحده.

وكان رضي الله عنه - وعاء من أوعية العلم، استوعب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً كثيراً، وكانت وفاته في خلافة عثمان - رضي الله عنه - في سنة اثنين وثلاثين، وقيل: قبلها بسنة، وقيل: بعدها سنة، رضي الله تعالى عنه.

وأما معاذ بن جبل فقد أسلم وهو شاب لم يجاوز الثامنة عشرة من عمره، وكان في غاية الوضاءة، والحسن والجمال والبهاء، مع توقد الذهن والذكاء والحفظ، وشهد بيعة العقبة قبل مهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم شهد بدرًاً مما بعدها، ثم بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- انتقل إلى الشام، وكان من كبار علماء

^٣ - أخرجه الترمذى، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب أبي ذر -رضي الله عنه- (٦٦٩/٥)، رقم: (٣٨٠١)، وابن ماجه، باب في فضائل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فضل أبي ذر (١/٥٥)، رقم: (١٥٦).

^٤ - آخر جه الحاكم في المستدرك (٥٢/٣)، رقم: (٤٣٧٣).

الصحابة على صغر سنه، ثم بعد ذلك أصيب -رضي الله تعالى عنه- بطاعون عمواس، وكان على المنبر يقبل بثرة الطاعون؛ لأنه يعلم أن الطاعون شهادة.

فالملخص أنه توفي -رضي الله تعالى عنه- بالشام، وعمره لم يجاوز الثالثة والثلاثين، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يحشر بين يدي العلماء برتبة، قيل: برمية حجر، وقيل برمية سهم، وقيل: على مد البصر، وقيل: غير ذلك، يعني: يحشر متقدماً على العلماء، وهذا يدل على منزلته في العلم على صغر سنه -رضي الله تعالى عنه.

يقول: عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اتق الله حيثما كنت...)), قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ وأخباره أنه يحبه، وقال له: لا تدعنَّ في دبر كل صلاة..^(٥).

قوله: ((اتق الله حيثما كنت)), أي: اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وهذه هي حقيقة التقوى، أن لا يجدك حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك.

فإذا كان الإنسان متقياً فإنه لا ي الواقع ما نهى الله -عز وجل-، ولا يقارب محارمه، ولا يوجد في أماكن الرّبِّ، الأماكن التي لا يليق أن يوجد فيها والله يسخطها، ويُسخط فعل أصحابها، كما أنه لا يترك شيئاً من أمر الله -عز وجل-.

ثم يتفاوت الناس في التقوى بعد ذلك على مراتب، منهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتضى الذي يفعل الواجبات ويترك المحرمات.

وليس التقوى حيث يوجد من يعرفك من الناس، ومن تستحي منهم، فيكون تركك لما حرم الله -عز وجل- عليك من أجل حفظ مروءتك وصيانة عرضك، وشرفك، بل لابد أن يكون الحامل على ذلك هو الخوف من الله -جل جلاله-.

كثير من الناس قد لا ي الواقع كثيراً من الأمور، إما لأنها لم تحصل له، أو لا يعرف الطريق إليها، أو لأنه يصون عرضه وشرفه، لكن لو أنه حصلت له من غير تدنيس فيما يراه الناس فإنه لا يبالي، ويقتصر في هذه الأمور ويفعل ما يحلو له، ولذلك تجد أن هؤلاء إذا حصل له ما يحصل من مسارة النظر، أو من خائنة الأعين، أو حين يسافرون إلى بلاد لا يُعرفون فيها فتجد الواحد منهم لربما يقارب أموراً لا تليق، ويلبس لباساً لا يليق، ويعلق تعاليق لا تليق، ويلبس الصليب، ولربما لبس أشياء مما يفعله عبد الشيطان، وقد رأيت أشياء من هذا كثيرة جداً، شاب بائس يلبس قلادة عليها شعار عبدة الشيطان، وآخر يلبس قلادة عليها صليب صريح واضح لا شبهة فيه.

هؤلاء لو اتقوا الله -عز وجل- حيثما كانوا لما فعلوا هذه الأفعال المشينة، لكن حينما ظنوا أنه لا يعرفهم أحد لم يبالوا بهذه الأمور التي يقاربونها، والله -عز وجل- معهم يراهم ويراقبهم، ومطلع على أحوالهم حيث كانوا.

^٥ - أخرجه أبو داود، باب في الاستغفار (٥٦١/١)، رقم: (١٥٢٤)، وأحمد، (٤٣٠/٣٦)، رقم: (٢٢١١٩)، عن معاذ بن جبل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخذ بيده وقال: ((يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)).

وإذا اتقى العبد ربه -عز وجل- حيّثما كان صار على الجادة، ولا يحمله عجزه وخنواعه وضعفه أن يتعرّض في بعض الأمور التي يتعرّض فيها كثير من الناس، فالمرأة تتحجب هنا، وإذا جاءوا يسافرون إلى الخارج بدّعوا يسألون عن الكاب -وهذا جيد الذي يسأل عن الكاب- وتضع العباءة على الكتف، وتطوي الحجاب على رأسها، وتظهر الوجه، باعتبار أن الوجه فيه خلاف، أو سمعت أن فيه خلافاً، ولم يأت ذكر الخلاف ولبس الكاب أو العباءة على الكتف إلا يوم السفر إلى الخارج، وهذا يدل على أنها لا تعترّ بدينها، وأنها ضعيفة مهزومة، لا يصلح مثلها أن يسافر إلى تلك البلاد.

((اتق الله حيّثما كنت))، هذه الكلمة قصيرة مختصرة، لكنها جامعه، فإذا جلست أمام التلفاز، وأمام القنوات اتق الله، تذكر هذه الكلمة، إذا جلست أمام الانترنت تصابح الصبح تذكر هذه الكلمة، إذا جاءك ما يأتي في هذا الجهاز الجوال مما ابتهلي به الناس من ألوان المنكرات التي ترد عن طريق من التصاویر المنكرة تذكر هذه الكلمة، والإنسان مهما حاول أن يتقى الله -عز وجل- فإنه لابد أن يقع منه تقسيم وزلل؛ لأنه ضعيف وعرضة لشيء من الغفلة، وقد ركبت فيه الغرائز والشهوات، فلا بد من مداواة واستدراك لهذا التقسيم الذي يحصل.

قال: ((وأتبّع السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا))، كما قال الله -عز وجل- في ذلك الرجل الذي قارف ما لا يليق مما لا يوجب الحد، فأنزل الله -عز وجل-: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزِلْفًا مِّنَ اللَّيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** [هود: ١١٤-١١٥].
فهذا ينبغي أن يكون ديدناً للإنسان إذا وقع منه التقسيم، ولذلك كان بعض الصحابة كابن عمر إذا فاته ورده من الليل صام ذلك اليوم الذي بعده، وكان بعضهم إذا اغتاب إنساناً تصدق بشيء من المال، أو صام اليوم الذي يليه، أو نحو ذلك.

((أتبّع السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ))، كما قال الله -عز وجل-: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}** [الفرقان: ٦٢].

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسِطُ يَدَهُ بِاللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسِطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ)). ولو أن الإنسان آمن بهذه الأشياء حقيقة واستيقنها لصلحت أحواله كلها.

قال: ((وَخَالَقَ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسْنٍ)) هذه عبارة جامعه، الأخلاق تجمع أشياء كثيرة جداً، كيف يخالف الإنسان الناس بخُلُقِ حسن؟

يدخل فيه ما قاله الترمذى وغيره أنه طلاقة الوجه، وكف الأذى، وإصال البر إلى الناس، ويمكن أن يقال أيضاً ما قاله بعض أهل العلم: أن تجعل نفسك مكان غيرك، فلا ترضى للناس إلا ما ترضيه لنفسك.

^٦- أخرجه البخاري، كتاب مواعيit الصلاة، باب الصلاة كفارة (١٩٦/١)، رقم: (٥٠٣)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِنُ السَّيِّئَاتِ" (٢١١٥/٤)، رقم: (٢٧٦٣).

^٧- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب القسامه، باب قبول توبه الساحر وحقن دمه بتوبته (١٣٦/٨)، رقم: (١٦٢٨١)، وفي شعب الإيمان (٢٩٠/٩)، رقم: (٦٦٧٣).

فَضَعْ نَفْسَكَ مَكَانٌ هُوَلَاءِ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَكَلَّمُ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْعُ في عَرْضِ أَحَدٍ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُسِيءَ إِلَيْهِ بِأَيِّ لَوْنٍ مِّنِ الْإِسَاعَةِ، ضَعْ نَفْسَكَ مَكَانَهُ، مَا الَّذِي تُرْتَضِيهِ لِنَفْسَكَ؟ مَا الَّذِي تُحِبُّ لِنَفْسَكَ مِنِ الْمُعَالَمَةِ؟ عَامِلُ الْآخَرِينَ بِمَثْلِهِ.

وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَضَعَ نَفْسَهُ هَذَا الْمَوْضِعَ لَحَسِنَتْ أَخْلَاقَهُ، وَتَغَيَّرَتْ مُعَالَمَتُهُ لِلنَّاسِ، وَالْإِنْسَانُ يَبْلُغُ بِحَسْنِ الْخَلْقِ دَرْجَةَ الصَّائِمِ الَّذِي لَا يَفْطُرُ، وَالْقَائِمُ الَّذِي لَا يَفْتَرُ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ مَنْزِلَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُمُ أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا^(٨)، وَلَمْ يَقُلْ: الصَّوَامُ الْقَوَامُ.

فَحَسْنُ الْخَلْقِ أَعْظَمُ مِنِ الصَّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَهِيَ قَضِيَّةٌ لَا تَكُلُّ إِلَيْهِنَّ شَيْئًا، لِكُنْهَا النَّفْسُ، لِهَا كُبْرِيَّاًهَا، وَلِهَا نَفُورَهَا، وَلِهَا مَا يَجْذِبُهَا وَيَشَدُّهَا عَنْ مَعْالِيِ الْأَمْوَارِ، فَلَا تَسْمُوُ، فَلَا يَرْضَى كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ إِلَّا بِأَخْلَاقِ الْكَلَابِ - أَعْزَمُكُمُ اللَّهُ.

هَذَا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَنْفَعَنَا وَإِيَّاكُمْ بِمَا سَمِعْنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ هَداةً مَهْتَدِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدَ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.

^٨ - أَخْرَجَهُ التَّرْمِذِيُّ، كِتَابُ الْبَرِّ وَالصَّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعَالِيِ الْأَخْلَاقِ (٤/٣٧٠)، رَقْمٌ: (٣٧٠).